الرسام الجزائري عبدالله بن عنتر ينتصر للتجريد في باريس

افتتح في صالة "كلود لومان" في الدائرة السادسة في باريس معرض جديد للفنان الجزائري عبدالله بن عنتر الذي يعدّ من العلامات البارزة في حركة الفن التشكيلي العربي الحديث، وهو من الفنانين العرب القلائل الذين لمع اسمهم في العاصمة الفرنسية، وهو يقيم في هذه المدينة منذ أكثر من خمسين عاماً. تعامل مع الكثير من صالات العرض الباريسية قبل أن يستقرّ، ومنذ العام 1989 مع صالة "كلود لومان" التي تقدّم آخر أعماله وإلى غاية نهاية هذا الشهر.

المعرض الجديد مناسبة لإعادة اكتشاف فنّان متميز، معروف بغزارة إنتاجه وبتفرّغه الكامل لفنّه، هو القائل إنّه يعمل أكثر من عشر ساعات في اليوم الواحد. تتألّف لوحات بن عنتر المعروضة من أعمال كبيرة الحجم وأخرى صغيرة أنجزت جميعها خصيصاً لهذا المعرض. في الأعمال الكبيرة يبدو المدى فضاء تتداخل فيه الألوان وتدرّجاتها اللامتناهية، على خلفيّة من أشكال مصقولة حتّى الامّحاء. لوحة تبتعد عن التصويريّة وتنتصر للتجريد. وإذا بان فيها شكل تصويري، وهذا ما يندر أن يطالعنا في نتاجه، فهو يذوب على الفور في هذا المحيط الشاسع من التجريد الذي تحفل به اللوحة. تغيب الوجوه والأجساد لتتحوّل إلى كتل من الطبيعة وعناصرها المتنوّعة في قالب سيمفوني شديد الالتصاق بالموسيقى. كأنّ عمل بن عنتر يقوم على الإيقاع أوّلاً وآخراً.

يستوحي بن عنتر أعماله من المناظر الطبيعية، وتختصر هذه الأعمال تأمّله العميق في الطبيعة ورؤيته الخاصّة لها فيتقاطع الضوء والمدى في فضاء اللوحة وتحضر هنا ذاكرة الفنان البصرية بقوّة، وهي ذاكرة نشأت وسط طبيعة المتوسّط ونمت حيث يلعب النور واللون دوراً أساسياً. إلى ذلك، تتميّز أعمال الفنّان بحساسيتها الشعرية وبحثها المتواصل عن علاقة الإنسان بنفسه وبالعالم من حوله. وكما يقول عنه الناقد الفرنسي يوري فهو "يعيش وحدة رائعة بعيداً من التيّارات والموضة والتجمّعات ليعيد بناء عالمه وزمنه باللون والضوء".

إذا كانت أعمال بن عنتر في مرحلة الثمانينات من القرن الماضي تميّزت بخصوصية الضوء الباهر، فقد انتقل في السنوات اللاحقة إلى نوع تعبيري أكثر تأمّلاً، لا سيّما بعد سفره إلى ايطاليا. وهو يتقن التعبير بشاعرية متميّزة تجعل من تآلف الضوء والظلّ مساحة مترامية الأطراف، مسكونة بالسكون والدهشة. وهي تنقلنا أيضاً إلى فضاءات تشبه صحارى هذا الكون، فنضيع فيها لنستدرك بعد لحظات أنّنا نقوم في رحلة تأمّل صوفيّ قوامها شفافية الضوء وانسياب اللون، وهي العناصر المكوّنة لعالم هذا الفنان ومناخاته العميقة الغور. يقول عنه الكاتب رشيد بوجدرة: "إذا كانت الغربة والترحال جعلا من الفنان عبدالله بن عنتر إنساناً يغوص في النفس البشرية، فقد جعل هو من هذه النفس عالمه خارج حدود الزمان والمكان، وهو الذي عرف كيف يصنع من وحدته وصمته موهبة فذّة".

ولد بن عنتر في مدينة مستغانم غرب الجزائر العاصمة في وسط ثقافي يهتم بالتراث والموسيقى. درس الفنون الجملية في مدينة وهران في مرحلة الأربعينات، انتقل بعدها إلى الجزائر العاصمة قبل أن يستقرّ عام 1953 برفقة صديقه الفنان محمد خدة في باريس لإتمام دراسته في "معهد الفنون الجميلة"، وقد التحق بعدها بـ"لا غراند شوميير".

عرض بن عنتر للمرة الأولى في ألمانيا عام 1956، وهو يحظى باهتمام كبير من متاحف الفنون الحديثة في الغرب. وكان "متحف الفنون الحديثة" في باريس قدّم معرضاً استعادياً له عام 1970، وهناك الكثير من أعماله في المحترفات الخاصّة ويمكن الاطلاع عليها أيضاً في أكثر من ثلاثين متحفاً من المتاحف العربية والغربية. تولّى بن عنتر الكثير من المسؤوليات في المؤسسات الثقافية الفرنسية، فكان عضواً في "لجنة الكتب النفيسة" وكذلك عضواً في "لجنة المكتبة الوطنية".

يقول بن عنتر إنّ "الفنان الكبير هو الذي يتقن الإنصات للوحة"، مضيفاً: "تظلّ اللوحة هي العمل الخالد وليس الفنان". يرسم بن عنتر ويعرض رسومه، وهو معروف من خلال هذه الرسوم، لكنّه أيضاً حفّار ونحّات بارع، وشاعر سبق أن نشر مجموعتين شعريّتين، ويقيم علاقة خاصّة ومميّزة مع الشعر والشعراء. وقد رافق رسومه المحفورة الكثير من الكتب والدواوين الشعرية، وأنجز عدداً كبيراً من الكتب الفنية بنسخة واحدة فريدة، أو بطبعات متنوّعة متعدّدة النسخ. أما الكتب التي أنجزها فتقارب الخمسمئة وتشكّل محطّة مهمّة في حياته الفنية، وهي تجمع قصائد لمئة وخمسين شاعراً من مختلف دول العالم ومن حقب وحضارات مختلفة.

تنوعت أشكال الكتب النفيسة عند الفنان وجمع فيها الرسم والحرف والتقنية. وهذا ما دفع أحد النقّاد الغربيين إلى القول إنّ "بن عنتر هو أستاذ الكتاب الفنّي بلا منازع"، لكن على رغم وفرة إنتاجه المحفور يعتبر الفنان نفسه رساماً ملوّناً قبل كل شيء. غير أنّ تجربته مع الكتب الفنية التي أنجزها تكشف عن نهم الفنان الى الشعر والتصاق تجربته الفنية بالتجربة الشعرية إلى حدّ بعيد. لقد زاوج بن عنتر بين الكلمة والرسم، ومهما تعدّدت وسائل الإبداع لديه فهي تصبّ في اتجاه واحد: التعبير عن الحياة.